نصف قرن مع مخطوط واحد

بقلم كراتشكوفسكى
ترجمة محمد منير مرسى

هناك مخطوطات تشعر بنفسك أمامها وكأنك تلميذ لساحر قام فى أسطورة باستدعاء الارواح ثم لم يستطع أن يسخرها ، وعندما نتذكر هذه المخطوطات ونبدأ فى الحديث عنها ، تقوم سلسلة من الاشخاص . وتتداعى القرون البعيدة الماضية والاعوام القريبة التى عاصرتها ، ومن هنا كان عليك أن تكتب عنها اما رواية واما كتابا كاملا .

ولما كانت حياتنا هى على راى المثل كحياة الفارفرار ، فانها لا تسمح باعطاء كثير من الوقت لموضوع واحد وتراك بقوة الارادة تحاول جاهدا ان تطرد الافكار التى تقف أمامك لاسيما ما يتعلق منها بمخطوطات أو موضوعات معينة تتعايش معها وتحتل مكانة عزيزة فى نفسك . لكن احيانا ما تكون المخطوطات عنيدة وتشعر بنفسك عاجزا أمامها عندما تسألك بقوة واصرار : ومن بعدك سيواصل الحديث ؟ هل أعطيناك الحق فى أن تحمله معك الى القبر ؟

ان ارادات العلم الخالد على مر العصور تتسم بالجبرية. وان ارادتك الشخصية تتنحى امامها فى نهاية النهاية .

تمر فى ذاكرتى المخطوطات القديمة التى كانت مرتبطة مع عالم معاصر مثل ارتباط مخطوط ديوان الاخطل الموجود فى ليننجراد مع الصلحانى العالم البيروتى الدمشقى ناشر الديوان ، ولقد سمعت عن هذا الناشر أول مرة من البارون « روزن » ، عندما اقترح على ان ادرس معه مخطوط ديوان الاخطل الذى كان أساسا لتلك الطبعة .

وكان هذا المخطوط موجودا انذاك فى القسم التعليمى بوزارة الخارجية بعد أن وصل اليه من مجموعة ايتاليندسكى الذى كان طبيبا وسفيرا وعالم آثار قديمة وحفظ لنا مخطوطات تاريخ الدينورى .

وكان مخطوط ديوان الاخطل جوهرة مجموعة القسم التعليمى . وفى سنة ١٨٦٧ قام مهاجر عربى هو رزق الله حسونة مترجم كربللوف ، الذى كان يعيش آنذاك فى بطرسبرج بنقل نسخة لنفسه من المخطوط ، ووقعت النسخة فى بيروت بعد عشرين عاما وكان لها الفضل فى اعطاء الدفعة الاولى للطبعة وكان المستعرب الانجليزى ف. رايت قد فكر قبل هذا فى نشر مخطوطنا لكن تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن . ولم يستطع رايت أن يحقق خطته فقد انتهى طريق حياته سنة ١٨٨٩ .

وحقيقة أن « روزن » هو الذى كشف عن هذا المخطوط فى فهرسه لكن قبل ذلك كان يعرف مؤرخنا الروسى انه توجد لدى الاخطل أقدم اشارة تاريخية عند العرب عن الصقالبة فى بيته الذى يقول فيه :

عوادل عوجا عن اناس كانما
يزين بهم جمع الصقالبة الصهب

ولقد اتفق انه فى نفس السنة التى مات فيها رايت وقعت نسخة حسونة فى بيروت ، وهناك غيرت مجرى حياة عالم كبير ولغوى قدير وعارف دقيق بآثار ادبه القومى واعنى به الصلحانى ، الذى أصدر طبعة من خمسة أجزاء « لالف ليلة وليلة » ، وهى الطبعة الوحيدة التى انتشرت بين القراء .. ولقد تحول اهتمام الصلحانى الى الاخطل احد مواطنى بلده الاقدمين ، على أن الصعوبات لا سيما الفنية منها لم تكن بالقليلة فقد كان من غير الممكن آنذاك أن يرسل مخطوط بطرسبرج الى بيروت .

ولم تكن قد شاعت بعد الصور الشمسية واخيرا وبناء على اقتراح روزن ، قام الصلحانى باعداد طبعة المخطوط على حسب نسخة حسونة ، وأرسل صورة الطبعة الى بطرسبرج حيث قارنها روزن مع أصل المخطوط واضاف اليها كل الملاحظات التكميلية وخرجت الطبعة فى بيروت بسرعة وكانت قد بدأت الطبعة سنة ١٨٩١ ، وبعد عام تم طبع أربعة أجزاء .

وبدأ العمل على اعداد الفهارس وجمع الاقتباسات من شتى المصادر وابتدأت تظهر مواد جديدة .

فقد وجد مخطوط فى بغداد وآخر فى اليمن وكلاهما فى الحقيقة ناقص ومعيب ويتشكل من أوراق غير متسلسلة لكنهما يحملان الكثير من التفسيرات والتوضيحات الجديدة . وقد نشرهما الصلحانى فى عامى ١٩٠٥-١٩٠٧ واستعان فى ذلك بخدمات تقدم فن التصوير الزنكوغرافى . وقد عمل الصلحانى دون كلل لكن الاخطل وضع امامه مشكلات جديدة واخذ يجذبه بعيدا بعيدا بالجديد من المخطوطات .

وفى سنة ١٩١٤ سافر هذا الناشر الى استانبول من اجل دراسة ديوان نقائض جرير والاخطل الذى كان موجودا هناك . وكان اشتعال الحرب سببا فى تعطيل خطته لمدة طويلة .

ولم يستطع الصلحانى ان يخرج طبعته عن ديوان استانبول الا سنة ١٩٢٢ وبعد ثلاثة اعوام ظهر القسم الثانى من الجزء

الخامس من ديوان الاخطل ، لكن لم ينته بهذا عمل الصلحانى عن الاخطل .

●

فقد حدث فى احدى مقالاتى أننى أشرت بطريقة عابرة الى مخطوط للاخطل اكتشفه فى طهران صديقى الاصفر المستشرق فى الفاراسية راماسيكفتش الذى هلك سنة ١٩٤٢ ابان محاصرة لينينجراد . وبعدها بشهور تسلمت من الصلحانى خطابا يطلب منى اخباره عن بعض التفصيلات الخاصة بالمخطوط الجديد . وفى نهاية سنة ١٩٣٨ فوجئت بوصول طبعة مخطوط طهران مع اهداء الناشر وكلمات رقيقة مؤثرة ، وظهر انه بعد خطابى بدأت جامعة بيروت محادثات عن بيع المخطوط مع صاحبه الطهرانى ، وامتدت المفاوضات الخاصة بثمنه مدة اربع سنوات لكن فى النهاية فى سنة ١٩٣٧ رحل المخطوط من طهران الى بيروت .

وظهر ان مخطوط طهران اقدم المخطوطات المعروفة حتى الان عن ديوان الاخطل ويرجع تاريخه الى سنة ١٩٠٥ م .

وكان ما أثار تعجبى فى هذه الطبعة الجديدة للصلحانى هو أن مخطوط طهران بالذات كان قد درسه التبريزى العالم اللغوى عندما كان له من العمر ٨٠ عاما . وهكذا ظهر أن العالم ضيق بالناس الذين تلتقى معهم صدفة وعلى غير انتظار بل انك لو عشت طويلا مع المخطوطات فانك كثيرا ما تلاقى الصديق القديم فى موقف جديد .

وبعد الحرب العالمية الثانية وصلتنى اخبار عن الصلحانى تفيد أن حياته التى ملات مايقرب من مائة عام قد انتهت فى ١٠ اغسطس سنة ١٩٤١ ، وها هو ذا الان كما عبر لى مرسل الخطاب ينام نومته الاخيرة تحت اشجار الارز « فى الجونية » بعد أن أهدى أكثر من نصف حياته الى الاخطل زميل وطنه ومطرب بنى أمية .